أَسَاليبُ البَيَانِ القُرْآنِيِّ

الاستاذ الاول المتمرس الدكتور
محمد حسين علي الصغير
جامعة الكوفة -العراق

فحوى البحث

إن الإبلاغ في القرآن، وهو عربي العبارة إنساني الدلالة، يتسع لأكثر من معنى متعارف، ويشمل أوسع من مجال، فقد أعدّ لكل مراد أهبته، وأفرغ لكل معنى لفظه بل ألفاظه، ووازن بين الشكل والمضمون بدقة التأويل؛ وهذا ما يوحي به الأستعمال القرآني من ملاءمة اللفظ للسياق الجملي، ومباركة العبارة للنص الفني, فلكل لفظ إستعماله الخاص الذي لايستعاض عنه بسواه، مع إستحضار عجيب لجملة المعاني التي يحملها ويتحملها في إستعمال الأفصح بوجود الفصيح، واستقطاب الأبلغ بتوافر البليغ، واستحسان الأنسب مع مقاربة المناسب، وليس هذا ابتداءاً جديداً، بل هو المنطق السليم الذي أدركناه، والذي يعرض له السيد الباحث في سردي من فصل واحد يترك فيه الباحث مهمة الاستنتاج لفطنة القاريء وثقافته اللغوية والبلاغية.

• في أساليب البيان القرآني إبتكارات متميزة في التعبير تعنى باستكناه فنون البلاغة العربية في ألفاظ القرآن ذاتياً.. ومنضمَّة الى المعاني تركيباً مزدوجاً في خطين رئيسين يرفد احدهما الآخر.. فلا مزية للفظ على حساب المعنى، ولافرية للمعنى على حساب اللفظ.. بل هما يجريان مجرى الوحدة المتماسكة في تفاعل وقف أمامه البلاغيون خاشعين.. وكانت إيحاءات ذلك تتجاذب في إشارات بيانية دقيقة عاش بين يديها الفكر مبهوتاً.

وفي ضوء هذا، كانت الاطلاقات التعبيرية تستعمل بمختلف الارادات الفنية.. وفي طليعتها الإخبار عن المعنى الواحد بألفاظ متعددة.. تلتقي بالمعاني الأولية حيناً، وبالمعاني الثانوية حيناً آخر.. وفي معنى المعنى سواهما.

وكان من طرائف القرآن ونوادره: مخاطبة العرب بسنخ كلامهم، وبليغ أدائهم؛ فلا يستطيعون مجاراة ذلك ولا مباراته، فيعترفون بأعجازه على مضض.. ويسلّمون بتفوقه البياني نزولاً للأمر الواقع.

وهذا هو المنهج البلاغي في القرآن أصالة واسلوباً في المفردات والتركيب الجملي بإنضمام العلاقة القائمة بينهما لإبلاغ الخطاب القرآني على الوجه الأكمل.

وإستيعاب هذا الملحظ يقتضي التدقيق في عملية مضنية ربما تناول قسمها الأوفر علماء التراث البياني وفق الأسلوب التقليدي في التصنيف والتفريع والأستنتاج، وخلط ماليس من البلاغة فيها بمعادلات فلسفية ومنطقية ذهبت ببهاء البيان العربي في متاهات لا أول لها ولا آخر.

أمّا إخضاع النظريات المعاصرة للمفهوم القرآني في مصاديق حديثة المعايير، فهو مايحتاج الى تمرّس حضاري بمبادي الألسنية ورحاب الدلالة الأوربية والعربية المعاصرة.. والأنفتاح المعرفي على كل ماهو أصيل ومبتكر.. علماً بأن الغرب والعرب مدينان الى ثقافة القرآن العظيم في دلالاته المركزية والأيحائية الفعلية والصوتية وسواها، باصطفاف زمني بعيد.. وفي لحظات معاصرة فوق العادة.

وسلسلة النظريات الرائدة في الألسنية ونقد النص الادبي؛ واستقراء الجديد حدب عليها القرآن ونهض بثقلها وعبئها بإطار جديد، وعرض حضاري، وأسلوب متفرد قد تقصر عن تناوله أعرق الثقافات البائدة والسائدة فيما حقق من ايجاز فني سبق عجلة الزمن، وأفاض بسبله الزاخرة بيانياً نابضاً بالحسن والحركة حفظ في أؤلئك لغة العرب في حين تختفي اللغات واللهجات والرطانات السلافيه والآرامية عن قاموس الخطاب والقول، إذ لايعضدها أصلٌ راسخ كالقرآن العظيم.

إن الإبلاغ في القرآن وهو عربي العبارة إنساني الدلالة يتسع لأكثر من معنى متعارف، ويشمل أوسع من مجال، فقد أعدّ لكل مراد أهبته، وأفرغ لكل معنى لفظه بل ألفاظه، ووازن بين الشكل والمضمون بدقة التأويل؛ وهذا ما يوحي به الأستعمال القرآني من ملاءمة اللفظ للسياق الجملي، ومباركة العبارة للنص الفني، فلكل لفظ استعماله الخاص الذي لايستعاض عنه بسواه، مع إستحضار عجيب لجملة المعاني التي يحملها ويتحملها في استعمال الأفصح بوجود الفصيح، واستقطاب الأبلغ بتوافر البليغ، واستحسان الأنسب مع مقاربة المناسب، وليس هذا ابتداءاً جديداً، بل هو المنطق السليم الذي أدركناه.

ومن هنا تبدو البؤرة البلاغية حديدة النظر، فلا ايجاز يخلّ بالمعنى ولا إسهاب تمله الفطرة، بل لكل صورة ما يوائمها من الأداء اللفظي، فقد يختصر المعنى المتطاول بألفاظ تقصّر المسافة، وقد يعبّر عن الحقيقة الخالصة بالمجاز المبرمج، وقد تستخلص الفكرة بالأستعارة الذكيّة، وقد يشذّب القول بالكناية المهذبة، وقد يقرّب البعيد بالتشبيه الفني، وقد يصوّر المعنى الذهني بالتمثيل الحسي، وهكذا...

إن هذه الاطاريح الضخمة في جزئياتها لتعبّر بما لايقبل الشك عن الذروة الشامخة لمعايير البلاغية والبيان.

ومما يلفت النظر العقلي في الخطاب القرآني تطلعاته الأستعمالية إفراداً وتثنيةً وجمعاً بحسب طبيعية النص بلاغياً، فقد يخاطب الواحد بلفظ الجمع، وقد يطلق لفظ الجمع ويريد الواحد كما في قوله تعالى﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ

لَحَٰفِظُونَ ﴾[سورة الحجر: ٩].

والدقة هنا أن ضمير الجمع لايطلق على واحد الاّ على الواحد الأحد، وهو الله عز وجل لما في ذلك من تعظيم شأنه وحده لاشريك له ((حتى لقد منع كثير من البلاغيين إطلاقه على أحد المخلوقين، لأن ذلك كبر، وهو مختصٌ بالله سبحانه، كما حكي ذلك عن المبرد في الكامل والحريري في ملحمة الأعراب))[١].

وفي مقابل هذا قد يطلق المثنى لأرادة الواحد في تعبير القرآن قال أبو علي الفارسي (ت: ٣٧٧هـ) في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٖ ﴾[سورة الزخرف: ٣١].

((إن ظاهر اللفظ يقتضي أن يكون من مكة والطائف جميعاً، ولمّا لم يمكن أن يكون منهما دَلَّ المعنى على تقدير: رجل من احدى القريتين))[٢] فأطلق التعبير القرآني لفظ ((القريتين) وأراد رجلاً واحداً من إحدى القريتين، إذ لابدّ للمكين من المكان، ولايكون الأنسان في مكانين بوقت واحد والقرآن أراد واحداً في إحدى القريتين.

ومن حقائق القرآن الناطقة إبراز البيان في هيئة الأمر المستحيل عقلاً، وذلك بهدف المبالغة لما لن يكون أصلاً، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ﴾[سورة الزخرف: ٨١] وفي الآية أراء متعددة أوردنا بعضها في الدلالة المركزية.

ومن أساليب القرآن البيانية الأحتراس في الكلام بأن يكون محتملاً لمعنى بعيد عن الأذهان، فيؤتي بما يدفع ذلك الأحتمال كما يرى ذلك الزركشي[٣].

وعلى هذا يحمل قوله تعالى: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴾[سورة الزخرف: ٣٩] وقد أراد القرآن إشعارهم بما يفهمونه من طرائف العرب في الخطاب ووجوهه بأنهم لاينفعهم أشتراكهم في العذاب، فلا تخفيف عنهم حتى يهون الأمر عليهم، وتسلية بعضهم لبعض غير مجدية.

ومن أساليب التعبير الفني في القرآن أستمرارية الصفة وحملها على الأصل في الأستمرار إمعاناً في تاكيد الحالة التي يريد تصويرها القرآن كما في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا

بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [سورة الزخرف: ١٧].

وذلك للأيحاء بأن صفة اسوداد وجهه ملازمة له ليلاً ونهاراً، والتأكيد هنا على النهار أولى، لأن من أصيب بكارثة ليلاً قد يرجى له السلوان والفرج منها نهاراً.

و(ظِلّ) تستعمل عادة في الليل، وإذا أريد إستمرار الصفة له لازمته حتى في النهار، فلا مخرج منها.

والذي يستوقف الفكر متسائلاً: إن المراد من ضرب المثل هو الإخبار بولادة الأنثى، وعبّر عن ذلك بالبشارة، وليس هي ببشارة في مفهوم قريش، ولكن القرآن أمعن في التعبير عن شدة الأذى الذي لحقهم بأنه ((بشارة)) رغم أنف الجاهلية، فالأبناء ذكوراً واناثاً رزق كريم من الله تعالى، وقد ورد في المأثور أن الولد نعمة، والبنت حسنة، والنعمة مسؤول عنها، والحسنة مثابٌ عليها.

هذا من وجه، وهناك وجه أخر إختص به القرآن في الأشارة لأقسى أنواع العذاب وأشد العقاب بملحظ البشارة تبكيتاً للظالمين، وعليه قوله تعالى:

﴿ ... يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[سورة التوبة: ٣٤] وليس العذاب في مركزية اللغة مما يبشر به.

وهنالك وجه يتعلق باستعماله ((بما ضرب للرحمن مثلاً)) دون التصريح بالأنثى بينما استعمله صريحاً مبيناً في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [سورة النحل: ٥٨].

وهذا النحو من الاستعمال مرتبط باعجاز القرآن في طريقته الخاصة، وهو من فضائل القرآن، وله أشباه ونظائر في الأخفاء والإظهار، والتصريح والتلميح.

ومن أساليب القرآن البيانية أن يستعمل مايبدو متناظراً في الفهم الاولي في موقع ما، ولكنه مختلف لدى التحقيق البلاغي فقد استعمل القرآن في آيتين متعاقبتين لفظين مفترقين موضعاً غير متحدين لطفاً، وقد يبدو لأول وهلة أن السياق واحد، فلماذا هذا التغاير فقال في الآية الأولى:

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ [سورة الزخرف: ٢٢] ثم قال تعالى بعدها مباشرة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾[سورة الزخرف: ٢٣].

وللباحث إعمال الفكر في هذا السياق القرآني الفريد؛ فجزء النص في الآيتين متحدٌ لفظاً ﴿ ... إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم ... ﴾ [سورة الزخرف: ٢٢-٢٣] فلماذا جاءت كلمة ((مهتدون)) في فاصلة الآية الاولى؟. وجاءت (مقتدون)) في فاصلة الآية الثانية؟. وهل تصلح إحداهما مكان الأخرى؟. أم أن هنالك وراء الألفاظ، ما يخصص لكل منهما مكاناً لاتتعداه؟. ((والجواب ان يقال، إن الأولى إجابة قول الكفار الذين حاجوا النبي ﷺ فقال مخبراً عنهم: ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ ﴾ -أي من قبل القرآن ﴿ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾[سورة الزخرف: ٢١].

إي كتاباً فيه حجة بصحة دعواهم فهم متعلقون به، فأعرض عن ذلك، وقال تعالى لاحجة لهم لكنهم قالوا وجدنا أباءنا على ملة وطريقة في الدين مقصودة ونحن في إتباع أثارهم على هداية، فأدعّوا الأهتداء بسلوكهم سبيل أبائهم.

وأما الآية الثانية؛ فإنها خبر عن الأمم الكافرة بأنبيائها، وقال: ﴿ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ ... ﴾ [سورة الزخرف: ٢٣] إلا قال ذووا النعم والأموال من أهلها قريباً من قول هؤلاء الذين في عصرك يامحمد، فكان اقصى ما أحتجوا به أن قالوا: إنا وجدنا أباءنا على أمة فأقتدينا بهم، فلم يؤكد الخبر عنهم بدعواهم الأهتداء كما اكده عمن كان في عصره ممن يدعيه لبطلان قول الجميع، وزوال الماضين عن إحتجاجهم، وثبات هؤلاء في حجاجهم وقوله:

﴿ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ.. ﴾[سورة الزخرف: ٢٤] خطاب لمن قال: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ [سورة الزخرف: ٢٢] دون الذين قالوا مقتدون))[٤].

وهذا العرض المطوّل جـــاء إحترازاً من الذين ينكرون إختلاف الكلمتين في المؤدى والمعنى المراد، فأضطر الخطيب الاسكافي أن يطيل الأستدلال بيانا، لئلا تكون هناك حجة لأهل الأدعاء الساذج مما لايفقهون الفن القولي.

ومايقال هنـــا، يقال بالنسبة لقوله تعـــالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ [سورة الزخرف: ٣٣].

فأولئك الذين لم يتمرسوا بأسلوب القرآن البلاغي ولم يتواصلوا مع الظاهرة القرآنية في الاداء والمحتوى البياني؛ قد تظنون في هذه الآية أن الله تعالى هو الذي خلق الكفر والايمان لما خلق الموت والحياة، والله عز وجل يدعو الى الأيمان لا الكفر، والأية تدل دلالة قطعية أن الله عز وجل لايخلق الكفر ولايدعو إليه، لأنه لو كان هو الخالق له، فلا يصح العقاب، والله تعالى يعاقب على الكفر، وحينئذ ينبغي الرجوع الى أصول بلاغة القول ليعرف أن المراد بذلك خطاب وإبلاغ الذي يختار الكفر على الأيمان، لأنه تعالى نبّه هؤلاء المختارين الى أن ذلك متاع الحياة الدنيا وزخرفها حينما يكفرون بأنعم الله ويختارون الكفر، لأن الآخرة إنم تكون عند الله للمتقين، وإختيار الكفر ليس من التقوى.

((والأتقاء معناه أن لايتخذوا زخرفاً في الدنيا من المعصية، فيترك المعصية ويتقي النار، وذلك لايصح الا وهم المختارون لذلك))[٥].

وذلك الاختيار إنما يكون بتوفيق من الله عز وجل، وبدفع منه لأنه يدعو الى الأيمان، والتقوى -وهو مما نفتقر إليه- ركن قويم من اركان الأيمان.

ومن اساليب القرآن البلاغية استعمال النداء من العالي الى الداني بصيغة تدل على الرضا، والرضا غاية مايصبو إليه المؤمن، ففي قوله تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [سورة الزخرف: ٦٨] نداء اعقبته جملة خبرية بنفي الخوف والحزن، فأفادت الأطمئنان نفسياً، وأشاعت الأمن عملياً، فاذا بحثنا كلمـــة ((عبـاد)) بيانياً في القرآ، العظيم

نجدها تُشعِر معنى الاضافة الى الله تعالى، وهذه الأضافة تعني أنهم اللاصقون بالله عـز وجـل، والمخلصـون والمصطفون، وبلاغة هذه الأضافة توصلنا الى تخير اللفظ في الدلالة، ومن أبرز شواهد ذلك قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [سورة الفجر: ٢٧-٣٠].

فالنداء صادر من الله تعالى الى جنس النفس المطمئنة الراضية بجميل صنع الله عز وجل، وبجزيل ثوابه، راضيةً بما قدر الله لها من عظيم الجزاء، مرضية من قبل أمّه لحسن عملها وأداء واجبها، فبشرها أولاً بالدخول في عباده فوراً بدلالة فاء العطف ترتيباً، وبشرها ثانياً بالأمر في دخول جنته المنسوبة إليه تعالى، وهو تشريف لهم ولهذه الجنة.

إن هذه الأطلالة المشرقة من القرآن تحكم من وجهة نظر بيانية وعقلية معاً: أن التعرف على عباد الله الصالحين والأمتزاج بهم، والدخول في زمرتهـم؛ أعلى درجة وأسمى منزلة من دخول الجنـة التي وعد الله المتقين، وهذا بديهي عقلاً لأن الفوز بلقاء محمدﷺ والألتقـاء بالأنبياء والمرسلين والشهداء والصديقين وأئمـة أهل البيتعليهم السلام انهم اكثر سعادة، واكثر حفاوة، وأعز جناباً، وأطيب نفساً، وأفضل معشراً ولقاءً من دخول الجنة، لهذا ولغيره قدم الدخول في العباد على الدخول في الجنة، فأنهم العباد المنسوبون الى الله تعالى.

ومن دلائل الأعجاز البياني في القرآن نزوله مبرجاً ومنظماً في سور لها اسماؤها وبها ألاؤهامن الله تعالى؛ ورصف هذه السور على شكل ايات بينات، تشمخ كل آية بدلالتها، وتعبّر عن ذاتها بذاتها، فاذا انضمت الى مثيلاتها شكلت سورة كاملة، والسورة الى جنب السورة تشكل القران العظيم.

((فان قيل: فما الحكمـة من تقطيع القرآن سوراً؟؟. قلت: هي الحكمـة في تقطيع السور أيات معدودات، لكل آية حد ومطلع، حتى تكون كل سورة بل كل آية فناً مستقلاً وقرآناً معتبراً، وفي تسوير السورة تحقيق لكون السورة بمجردها معجزة وآية من آيات الله تعالى))[٦].

وفي باب البيان القرآني الذي هو الأحضار لما يظهر به تمييز الشيء من غيره في الأدراك، نجد الرمّاني (ت٣٨٦هـ) يختار نماذجه من سورة واحدة في القرآ، بشكل يدعو الى الأستطلاع الواعي في إستيحاء جمال القرآن بيانياً.

ففي قوله تعالى: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾[سورة الزخرف: ٥] قال الرماني: فهذا أعظم مايكون التخسير.

وفي قوله تعالى ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [سورة الزخرف: ٣٩] في قوله تعالى ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[سورة الزخرف: ٧١] قال الرماني: فهذا أشد مايكون من الترغيب.

وفي قوله تعالى ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة الزخرف: ٦٧] وهذا أشدّ ما يكون من التنفير على الخلة إلا على التقوى[٧].

وللبحث أن يضيف شيئاً الى ما أورده علي بن عيسى الرماني؛ ففي قوله تعالى ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾[سورة الزخرف: ٧٧] فهذا اقصى درجات اليأس؛ وجوابه أسى مايكون على المجرمين.

وفي قولـه تعالى من السورة نفسها: ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سورة الزخرف: ٤٠] اوضح علائم الاستبعاد.

وفي السورة نفسها عدّ إبن أبي الأصبع (ت٦٥٤ هـ) موضعين يدلان على حسن البيان القرآني، وحقيقته: إخراج المعنى في أحسن الصور الموضحة له، وإيصله الى فهم المخاطب بأقرب الصور، اسهلها لأنه عين البلاغة.

ففي قوله تعالى ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾[سورة الزخرف: ٥] ارادة بيانية عن تقريع الكفار.

وفي قوله تعالى ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [سورة الزخرف: ٣٩] إرادة بيانه عن التحيّر[٨].

وابن ابي الاصبع في هذا مقارب لما

ذهب إليه من ذي قبل الرماني.

ومن أساليب البيان القرآني حذف المضاف وإحلال المضاف إليه محله على طريقة العرب في ذلك كما في قوله تعالى:

﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [سورة الزخرف: ٤٥].

يعقب عليها السيد الشريف الرضي (ت ٤٠٦هـ) بقوله:

((أي اسال امم من ارسلنا، أو أتباع من ارسلنا))[٩] وهذا باب تصعب الاحاطة به، فهو متشعب الفروع التي لاتحصى كثرةً في القرآن، وإذا كان البيان يعنى بالأبانة وكشف حقائق التنزيل فأن المبين هو الله تعالى، وهذا لاينافي قوله عز وجل ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ [سورة الزخرف: ١-٢].

فقد ذهب فخر الدين الرازي (ت٦٠٦ هـ) الى القول: إن وصف القرآن يكونه مبيناً مجاز، لأن المبين هو الله تعالى وسمّى القرآن بذلك توسعاً من حيث أنه حصل البيان عنده))[١٠].

ومازلنا في صدد بيان حسن البيان القرآني، فان من بيانه ما افلت علينا، لاسيما في الحروف المقطعة في أوائل السور القرآنية، وقد نهدتُ الى دراستها دراسة تفصيلية في الجانب اللغوي المتطور في عمل مستقل[١١].

وذهبت الى أن أمثل الأقوال ينحصر بأنها من المتشابه الذي لايعلمه الا الله والراسخون في العلم، أو أنها من رموز بين الله تعالى ورسوله، وقد يأتي تفسيرها بعد حين، إذا شاء الله عز وجل فكّ تلك الرموز.

على أننا نميل الى رأي الدكتور مالك بن نبي بالقول الذي سبق إليه جمهرة من قدامى المفسرين والمحدثين، فقال:

((لقد حاول معظم المفسرين أن يصلوا الى موضوع هذه الأيات المغلقة الى تفاسير مختلفة مبهمة، أقل أو اكثر إستلهاماً للقيمة السحرية التي تخصّ بها الشعوب البدائية الكواكب والأرقام والحروف.

ولكن أكثر المفسرين تعقلاً وإعتدالاً هم أولئك الذين يقولون في حال كهذه بكل تواضع: الله أعلم))[١٢].

وقد أيد السيد السبزواري في مواهب

الرحمن ما ذهب إليه.

وقد نصّ الأمامية والمعتزلة وأغلب الاشاعرة أن هذه الحروف المقطعة الواردة بافتتاح السور المباركة. هي آيات قرآنية.

وكان أكثرها وروداً (الحواميم) والمراد بهـا أفتتـاح السورة بـ ((حم)) وجمعها حواميم، وقد وردت في سبع سور قرآنية هي:

غافر/ فصلّت/ الشورى/ الزخرف/ الدخان/ الجاثية/ الأحقاف.

فقد ورد فيها ما أخرجه أبو عبيد عن إبن عباس:

((لكل شيء لبـاب، ولباب القرآن الحواميم))[١٣].

((الحواميم ديباج القرآن))[١٤] والله سبحانه هو العالم.

وفي القرآن الكريم مئات الأشارات البيانية في آياته وسوره مما يتعذر الإلمام بها، فلكل جذر بياني أصل قرآني، ولك أصل قرآني ملحظ بلاغي، ولكل ملحظ بلاغي عمق دلالي، ولكل عمق دلالي إستعمال مجازي، أو بعد تشبيهي، أو كنه أستعاري، أورمزكنائي، أو لمح تعريضي.

ولكـل جمهـرة من هذه الأطاريح المتطاولة مساحـات واسعة، وأحاديث لاتستقصى، وإشـارات لاتستوعب، وطرائف لاتنتهي، ونوادر لاتعدّ، وأبعاد أخرى مترامية الأطراف.

وقد نهد كتابنا (أصول البيان العربي في ضوء القرآن الكريم) بالثقل الاكبر من تلك اللمسات البلاغية، وأكد أصالتها بشواهد حيّة من آيات القرآن وحده.

وهذه المستويـات بعامة تمثل البيان العربي في أركانه الأربعة: المجاز والتشبيه والاستعارة والكنايـة، مما هو معروف في الدراسات البلاغيـة لدى القدامى والمحدثين..

وقد لايعترف علماء الدلالة المعاصرون بالحاق هذه الأصول بعلم الدلالة.. وهي وجهة نظر خالفناها في كتابنـا ((تطور البحث الدلالي ودراسة في النقد البلاغي واللغوي)).

الهوامـــش

(١) الزركشي/ البرهان ٢/ ٢٣٦ + الحريري/ ملحة الاعراب/ ١٣ طبعة بولاق.
(٢) ظ: الزركشي/ البرهان ٣/ ٣.
(٣) ظ: الزركشي/ البرهان ٣/ ٦٤.
(٤) ظ: الخطيب الأسكافي/ درّة التنزيل وغرة التأويل/ ٤٣٤.
(٥) القاضي عبد الجبار/ تنزيه القرآن/ ٣٧٨.
(٦) الزركشي/ البرهان في علوم القرآن ١/ ٢٦٤.
(٧) الرماني/ النكت في اعجاز القرآن/ ٩٩-١٠٠.
(٨) ظ: إبن أبي الأصبع/ بديع القران/ ٢٠٤.
(٩) الشريف الرضي/ حقائق التأويل ٥/ ١٣٦.
(١٠) مالك بن نبي/ الظاهرة القرآنية/ ٣٣٣ ترجمة: الدكتور عبد الصبور شاهين/ دار الفكر/ بيروت/ ١٩٦٨م.
(١١) ظ: المؤلف/ الصوت اللغوي في القرآن/ ضمن موسوعة الدراسات القرآنية دار المؤرخ العربي/ بيروت/ ٢٠٠٠م.
(١٢) مالك بن نبي/ الظاهرة القرآنية/ ٣٣٣ ترجمة: الدكتور عبد الصبور شاهين/ دار الفكر/ بيروت/ ١٩٦٨.
(١٣) السيوطي/ الأتقان ٤/ ١١٠.
(١٤) المصدر نفسه ٤/ ١١١.

المصـــــــادر والمراجع

خير مانبدأ به القرآن الكريم.

١. إبن إبي الأصبغ/ عبد العظيم بن عبد الواحد (ت٦٥٤ هـ)/ بديع القرآن/ تحقيق حنفي محمد شرف/ مطبع الرسالة/ القاهرة/ ١٩٥٧م.

٢. الحريري/ القاسم بن علي بن الحريري البصري أبو محمد (ت ٥١٦هـ)/ ملحة الاعراب/ طبعة بولاق الاولى/ ١٩٠٧م.

٣. الخطيب الاسكـــافي/ أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني (المتوفى: ٤٢٠هـ)/ درة التنزيل وغرة التأويل/ دراسة وتحقيـــق وتعليق: د. محمد مصطفى أيدين/ الناشر: جامعة أم القرى/ وزارة التعليم العالي سلسلة الرسائل العلمية الموصى بها/ معهد البحوث العلمية مكـــة المكرمة/ الطبعة: الأولى/ ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

٤. الرازي/ محمد بن عمر (ت٦٠٦هـ)/ مفاتح الغيب: دار الطباعة العامرة/ استانبول ١٣٠٧ هـ.

٥. الراغب الاصبهاني/ الحسين بن محمد بن المفضل (ت٥٠٢ هـ)/ المفردات في غريب القرآن/ تحقيق/ محمـــد سيد كيلاني/ مطبعة مصطفى البابي/ القاهرة/ ١٩٦١م.

٦. الرماني علي بن عيسى (ت ٣٨٦هـ)/ النكت في اعمارالقرآن/ صمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن/ تحقيق: محمد خلف الله ومحمد سلام زغلول/ دار المعارف/ القاهرة/ ١٩٥٦.

٧. الزركشي/ محمـــــد بن عبد الله (ت٧٩٤هـ)/ البرهان في علـــــوم القرآن/ تحقيق/ محمـــد ابو الفضل ابراهيم/ دار احياء الكتب العربية/ القاهرة/ ١٩٥٨م.

٨. السيوطي/ جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر (ت٩١١هـ)/ الاتقان في علوم القرآن/ تحقيق/ محمد الفضل ابو ابراهيم/ مطبعة المشهد الحسيني/ القاهرة/ ١٩٦٧م.

٩. الشـــريف الرضي (ت ٤٠٦ هـ)/

حقائق التأويل/ طبعة المجمع الثقافي لمنتدى النشر/ ١٣٥٠هـ.

١٠. الطوسي/ محمد بن الحسن (ت ٤٦٠هـ)/ التبيان في تفسير القرآن/ تحقيق/ احمد شوقي الامين + احمد حبيب القصير/ المطبعة العلمية/ النجف الاشرف/ ١٩٥٧م.

١١. القاضي عبدالجبار المعتزلي/ عبدالجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمداني المعتزلي (المتوفى: ٤١٥هـ)/ تنزيه القرآن/ الناشر: دار النهضة الحديثة/ ٢٠١١.

١٢. مالك بن نبي/ الظاهرة القرآنية/ ترجمة عبد الصبور شاهين/ دار الفكر/ بيروت/ ١٩٦٨م.

١٣. محمد حسين علي الصغير (المؤلف)/ نظرات معاصرة في القرآن/ دار المؤرخ العربي/ بيروت/ ٢٠٠٠م.

١٤. محمد حسين علي الصغير (المؤلف)/ الصوت اللغوي في القرآن/ ضمن موسوعة الدراسات القرآنية/ دار المؤرخ العربي بيروت/ ١٩٦٨.